

العمارة في سياق البداوة: قراءة في مفهوم العمارة ومركزاتها:

منطقة الغرب الصحراوي نموذجا

إعداد

الدكتور/ محمد بوزنكاض

شعبة التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب

مقدمة:

تشكل العمارة معطى تاريخيا بأبعاد حضارية ومجتمعية مركبة، مما يجعل منها مدخل أساسيا لدراسة المجتمعات وفق منطق تركيبي يتطلع إلى تملك " براديغمات" تتأسس على المشترك في نماذج المدن والمشاهد العمرانية المنتشرة بمجالات معينة، خاصة وأن العمارة أفرز لشروط ايكولوجية، واقتصادية، ومجتمعية وثقافية وتاريخية محددة، ومشاركة، مما يفسر الحديث عن العمارة المتوسطة والعمارة الإسلامية والعمارة الاندلسية...، وبالقياس أمكننا الحديث عن العمارة الصحراوية التي ارتبط ظهورها بشروط البداوة، واتسمت بخصائص متفردة سمتها البساطة، وقد سبقنا ابن خلدون إلى الحديث عن العمران البدوي في مقابل العمران الحضري.

لقد شكلت الندرة خاصية البداوة، وعلامتها البارزة والملازمة، وهو المعطى الذي ينسحب على مختلف المجالات الاقتصادية والفكرية والعمرانية، ويخلق عاملا بنيويا لتشكل مختلف الأنساق المشكلة لمجتمع البداوة وثقافته واقتصاده، والتي تخلق واقعا مفارقا، يميز بنيات هذا المجال عن غيره، كما تتخذ في سياق هذه الخصوصية المفاهيم والمصطلحات مضامين مختلفة، كما هو الشأن بالنسبة لمفاهيم الملكية والثروة والعمران وغير ذلك من المفاهيم.

إن الحديث عن العمارة في سياق البداوة، يكاد يكون معطى مفارقاً، بل إن الثانية تنفي الأولى، حيث سادت في التمثل العام، تلك الصورة التي تنسب للصحراء صورة نمطية تتشكل من الصحراء والقحولة و"الخلاء"، وندرة الماء وغياب الاستقرار وغياب الحواضر والتجمعات السكانية..، وغيرها من الأوصاف التي تجعل البداوة ربيبة الانتجاع و نقيضة الحضروالاستقرار، وهو ما يشكل مبرراً لدراسة أشكال العمارة في المجالات الصحراوية، وإبراز خصائص هذه العمارة ووظيفتها، والتحولت التي عرفتها الخريطة الحضرية بالمجال خلال الفترة الاستعمارية.

إن هذه الورقة تتطلع من بين ما تتطلع إليه إلى مساءلة الشروط الحضارية لخصوصية المجالات الصحراوية، وبالتالي فهي ليست مقارنة عمرانية تراثية بالمعنى المباشر، بقدر ما هي محاولة لقراءة السياقات والانساق الثقافية والذهنية المفسرة لماهية العمران في هذه المجالات، وخصائصه ومقوماته، والتساؤل عن أي عمارة في مجتمع طغى عليه الترحال؟ والخلفيات الثقافية الدينية والعرفية المؤطرة للعمارة في المجالات الصحراوية؟

أولاً: العمارة في الغرب الصحراوي: لمحة استوخرافية ومفاهيمية:

1- العمارة في الغرب الصحراوي من خلال الكتابات العربية والاجنبية:

أجمعت المصادر العربية والكتابات المحلية المتأخرة على وسم المجال بالبادية كناية على غلبة الترحال وغياب الاستقرار وقلة التجمعات الكبرى أو المراكز الحضرية، وقد برز هذا المعنى بشكل واضح ومكثف في تسمية المجال بالصحراء أو المجابة الكبرى كما جاء لدى البكري في قوله "ومن غرائب تلك الصحراء ... ملح على يومين من المجابة الكبرى"¹، واستمر هذا الوضع خلال القرن 12/6هـ، وعبر عنه الادريسي في حديثه عن حواضر المجال في قوله بأن الصحراء مجال فارغ من المدن، إذ ليس لاهلها من مدينة " ياوون إليها إلا مدينة نول لمطة ومدينة أزقى للمطة أيضا. فأما مدينة نول الغربية

¹ - أبو عبيد الله عبد الله البكري، المسالك والممالك، تحقيق: جمال طلبة، (جزأ)، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003/1424، ص: 358.

فمنها إلى البحر ثلاثة أيام، ومنها إلى سجلماسة ثلاث عشرة رحلة²، بالرغم من أن الفترة الوسيطة شهدت دينامية عمرانية مهمة نسبياً ارتبطت بالتجارة الصحراوية، قياساً لما ستعرفه المنطقة من تحولات ابتداء من بداية الحقبة الحديثة، وقد نقل صاحب رحلة "المنى والمنة" جانباً من هذا التحول الذي عرفته العمارة بهذه الأوساط الصحراوية في قوله إن الطريق عبر الصحراء من أطار إلى واد نون التي قطعها في رحلته كانت "مسبولة حتى أنك لا تبيت إلا في عمارة ولا تقيل إلا في عمارة من كثرة العمارة"³، ولعله يقصد العمارة بمعناها العام التي قد تتسحب على التجمعات الصغرى والقوافل التي كانت تخترق المجال.

وهذا المعطى ثابت، حيث عرفت الصحراء خلال الفترة الوسيطة دينامية اقتصادية/تجارية وسياسية ومجتمعية أنتجت تراكمات عمرانياً مهما وثقته كتب الجغرافيا والرحلات في غيرها في وصفها للخريطة الحضرية من مدن وأسواق ومراكز على امتداد المسالك التجارية بالمجالات الصحراوية، غير أن هذه الوضعية تأثرت بتراجع هذه الدينامية وتحول مسالكها نحو الواجهة الأطلسية الساحلية، وترتب عن ذلك أن "خليت الطريق بين وادان وتشيت وأحرى بين وادان وتنبكتو لا عمارة ولا أدنى من ذلك"⁴، وذلك مقارنة مع العصور الوسطى، حيث كانت التجارة الصحراوية تضيء دينامية اقتصادية أثمرت نمو وازدهار الحواضر داخل هذه المجالات الصحراوية.

لقد نقلت المصادر المحلية مؤشرات مهمة تصف هذا المشهد، وتتحدث عن قلة الحواضر بل وانعدامها في صحراء المغرب، وهو ما عبر عنه صاحب "المعسول في قوله " أنه "لا قرية فيها ولا ساقية ولا سوق تساق إليها السلع...، وإنما ينزلها أهل المواشي، فيسيمون أنعامهم بواديها وبواديها، ثم يرتحلون فلا يبقى

² - الشريف الإدريسي، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، الإقليم الثالث، الجزء الأول، منشورات مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2002، ص ص 223 - 225.

³ - نفسه، ص: 81.

⁴ - أحمد بن طوير الجنة، المنى والمنة، نسخة بمكتبة نواكشوط، عدد 2777، موريتانيا، ص: 82.

فيها أنيس⁵، وأثبت صاحب "الوسيط" هذا الأمر بدوره في قوله إن الصحراء كانت "خالية لا أنيس بها"⁶.

وتطورت هذه الصورة التي تتمثل الصحراء من داخل خصائصها الايكولوجية والطبيعية، حيث صعوبة التضاريس وقلة الامطار وغياب أشكال الاجتماع الإنساني، وهو معطى طبيعي يصدر عن دراسة الصحراء من داخل نموذج معياري ومرجعي يصدر عنه هؤلاء الذين يمثلون الحضارة الغربية وما يسمها من تطور عمراني وغلبة المدن الكبرى، وبالتالي تظل مختلف الانطباعات تترجم هذه المرجعية والمركزية الأوربية، لذلك لعبت الكتابات الأجنبية ذات النزعة الكولونيالية دورا كبيرا في ترسيم صورة الصحراء في الذاكرة، ووجدت في هذه الصورة التي تنظر للصحراء باعتبارها مجال خلاء ما يخدم أهدافها الاستعمارية، لذلك انطلقت من تبني الإشارات المصدرية العربية ونقل صورة لا تختلف عن الصورة النمطية للصحاري كمجالات فارغة من التجمعات الحضرية والمراكز والعمارة بالمعنى الضيق؛ حيث انعدام المنشآت السكنية والمعالم العمرانية، إذ اتفقت على ذلك الكتابات الفرنسية والاسبانية، فبالنسبة للكتابات الفرنسية، أجمعت على خلو المجالات الصحراوية في المغرب من الواحات والحواضر بالصحراء إلى غاية أواخر القرن 19.

كما أجمع الاسبان على حالة البداوة التي ميزت الصحراء، حيث نبه عدد منهم إلى قلة الواحات بالصحراء، وهو المعطى الذي أثبته كاروباروخا Baroja في قوله إن الصحراء المغربية تخلوا من الواحات كما هو متعارف عليها⁷. وإلى ذلك تذهب معظم الكتابات الأجنبية وتزكيتها التقارير التي تحتضنها الأرصدة الوثائقية بهذه الدول. واعتبرت حالة البداوة التي تعيشها المجموعات القبلية لهذه

⁵ - محمد المختار السوسي، المعسول، (20 جزءا)، مطبعة فضالة، المحمدية، 1950/1380، الجزء السادس، صص: 40-41.

⁶ - أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي بالقاهرة ومكتبة منير موريتانيا، مطبعة المدني، مصر، 1999/1409، ص: 439.

⁷ - كاروباروخا، دراسات صحراوية، ترجمة: أحمد صابر، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، دار ابي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، 2015، ص 168

المجالات باعنا أساسيا على المشاكل التي تواجهها السلطات الاستعمارية في ضبط المجال وإخضاع ساكنته، لذلك ستبني رؤيتها الاستعمارية على دفع القبائل إلى الاستقرار وخلق مراكز حضرية والتضييق على حركية البدو، وهو المعطى الذي يفسر التحولات البنوية التي ستعرفها المجالات الصحراوية بالانتقال الحاد والسريع من البداوة إلى الاستقرار.

لقد غلب على المادة المصدرية والمعرفية التي تناولت المجالات الصحراوية عموما طابع التعميم والشمولية والإسقاط، مما يستوجب تعميق البحث في أجزاء هذه الصحاري في أفق الخروج بخلاصات أكثر علمية تحقق أهداف أعمال المقارنة والدراسة التي تستحضر السياقات التاريخية والمجالية، والاختلافات التي تظل ثابته حول هذه الصورة النمطية للصحراء. كما أن صورة الصحراء تكشف مركزية معطى العمارة في تشكل صورة المشاهد العامة للصحراء، والتي تشكل مصدرا لمعظم الأحكام والانطباعات التي حكمت التعاطي في المصادر، وتسرب هذه الصورة إلى مختلف الوسائط من أعلام باعتبارها ظلت من محفوظات الذاكرة بالأوساط المختلفة، حيث ظلت هذه الخلفية تشكل وتغذي معرفتنا وصورة الأوساط الصحراوية لدى الآخر.

1- إشكالية المصطلح في سياق الخصوصية البدوية: المجال والعمارة

1-2: الغرب الصحراوي: المصطلح والامتداد

اثرنا إجرائيا دراسة القضايا المرتبطة بالعمارة على مستوى مفاهيمها ومرتكزاتها من خلال مساءلتها داخل حيز جغرافي يغطي الجزء الغربي من الصحراء الكبرى الأفريقية من المحيط الأطلسي غربا إلى الغرب الجزائري شرقا ومن وادنون والصحراء المغربية شمالا إلى مجال أزواد بمالي جنوبا، وهو المجال الذي تشترك في نفس المقومات البشرية الثقافية (مجال الثقافة الحسانية)، بالرغم من أن المجال عرف تاريخيا بأسماء كثيرة من قبيل "مجال البيضان" أو "بلاد البيضان"، اتخذ هذا الاسم دلالة عرقية من خلال التمييز بين السودان، حيث الكلمة تصحيف لكلمة السود⁸ والبيضان في مجال جغرافي متاخم للسودان الغربي، وبالتالي فقد عبرت المصادر الوسيطة عن تصور ميز مرحلة اتسمت بتداخل وتعايش السودان مع

⁸ - داوود ولد عبد الله وآخرون، الثقافة والفكر ببلاد شنقيط: الأطر العامة وسياق الإنتاج، تاريخ موريتانيا فصول ومعالجات، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، مختبر الدراسات والبحوث التاريخية، معهد البحوث والدراسات حول العالم العربي الإسلامي، نواكشوط، 1999، ص: 64.

البيضان في هذه الحواضر، والأرجح انحدار هؤلاء البيضان من شريحة التجار أو عناصر من قبائل صنهاجة التي ارتبط بها هذا المجال الذي خضع إلى حدود القرن الرابع عشر لسيطرتها الثقافية والسياسية، وذلك ما يفسر تسمية حيث المنطقة بصحراء المثلثين خاصة خلال المرحلة المرابطية⁹، حيث استطاعت هذه المكونات انضاج تجربة سياسية مثلتها الدولة المرابطية، إذ احتضنت الصحراء هذا التطور في بداياته الأولى، وامتدت هذه السيطرة الصنهاجية إلى حين المد المعقلي، حيث تحدث الوزن عن المنطقة تحت إسم "صحراء صنهاجة"¹⁰.

قبل أن يخضع لاحقا لتأثير قبائل بني حسان المعقلية، وهي سيرورة تاريخية خلقت للمجال هوية حضارية مشتركة، وهو ما يفسر اختيارنا لهذا المجال لاختبار تأثر الظاهرة الحضارية/ العمرانية بالسياقات التاريخية والتحويلات التي عرفتتها.

2-2: مفهوم وماهية العمارة والعمران في الغرب الصحراوي

أسس ابن خلدون لعلم العمران وميز داخله بين العمران الحضري والعمران البدوي، يقينا منه بوجود أشكال مختلفة للعمران تنسجم مع خصوصية كل مجال، باعتبار العمارة هي التجسيد المادي للحضارة في أبعادها المختلفة، لذلك فقد كان طبيعيا أن تنتج الصحراء بماهي إطار طبيعي بخصائصه الطبيعية الصعبة ونمط إنتاج ساكنتها، وهي خصوصية مركبة تصنع خصوصية تستوجب دراسة مختلف القضايا على ضوءها، وفي سياق هذه الخصوصية يطرح تحديد مفهوم العمران وأشكاله إشكالية كبيرة ترتبط بطبيعة المجال، حيث تنفي البداوة العمارة نظريا، مما يصعب معه إعطاء العمارة المعني المعروف بالعوامل الأخرى، وذلك بفعل غياب أشكال الاجتماع الإنساني المعروفة واقتصار هذا الاجتماع على وحدات صغيرة تتجلى في "الفركان" والقبيلة"، وسيادة طابع الترحال وغياب منطق التراكم المادي

– عبد العزيز العلوي، تأثيرات "بلاد المغرب" على حضارة السودان الغربي في العصر الوسيط: الدين والفكر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 1998-1999، صص: 272-273.
⁹ عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتصدير، القاهرة، 2005، ص: 186.

¹⁰ محمد حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، الطبعة الأولى، الشركة المغربية للناشرين المتحدنين، المغرب، 1982، ج 1، ص: 148.

والديمغرافي، وانتشار قيم تنظر بازدراء للتجمعات السكانية "لكصور"، وتجعل منها فريسة سهلة في متناول المتربصين بها من البدو.

لذلك ساد المعنى الذي يربط العمارة بعمارة الأرض وإحيائها عبر حفر الآبار أو الزراعة أو العلم إلى غير ذلك، في تمثل للمعنى الفقهي العام المتضمن في منطوق الحديث الشريف "الأرض لمن أحيأها"¹¹، وهو المعنى جعل مجال الصحراوية يحتفظ بالشكل الفقهي للعمارة، والذي يعطيها معنى عام يستوعب كل أشكال احياء الأرض وعمارته من زراعة أو تجارة أو علم أو توفير للماء باعتباره شرطاً للحياة، حيث تتحقق عمارة الأرض "بتفجير الماء وإخراجه وبناء وغرس وبحرث وتحريك أرض وبقطع شجرها وبكسر حجرها وتسويتها"¹²، وفي هذا الإطار بذل محمد عبد الله بن البخاري مجهوداً كبيراً في توضيح هذا المعنى وإثبات حقيقة قيام هذا المعنى الذي يربط العمارة بإحياء الأرض، وبنى على هذا المعنى في رصد مجهودات قبيلته أهل برك الله في عمارة مجالات واسعة من الصحراء المغربية عبر جرد الآبار ونقط الماء بهذا الجزء من المجال الصحراوي ما بين المغرب وموريتانيا؛

لقد رسخت الكتابات المحلية لهذا المعنى العام للعمارة في حديثها عن الزوايا وأدوارها في عمارة الأرض، فبفضلها يتم "تعمير الأرض بحفر الآبار وتسيير القوافل...، وبقية هذه الطائفة التي هي عمارة الأرض مستمرة على ذلك"¹³، والذي يثبت تردد هذا المعنى في الكتابات التي غلب عليها الطابع الفقهي.

وبالموازاة مع إحياء الأرض بزراعتها أو توفير أسباب الاستقرار بها، تشكل "المآثر" التي ترتبط بالكرامات أو الأنشطة العلمية والدينية وتعهد الحياة العلمية وتوفير المحاضر مظهراً لعمارة الأرض وإحيائها، وهو الأمر الذي حظي باهتمام بالغ من طرف القبائل العاملة بالصحراء التي وجدت في هذا

¹¹ - صحيح البخاري، باب الأرض لمن أحيأها، كتاب المزارعة، ص 1022

¹² - شرح منح الجليل على مختصر العلامة خليل، تحقيق: الشيخ محمد عليش، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، 1404/1984، الجزء الثامن، ص 86

¹³ - أحمد بن الأمين الشنقيطي، مصدر سابق، ص: 478.

المعنى ما ينسجم مع وظائفها في عمارة الأرض عبر إحياء الأرض وتعهد الحياة العلمية والصوفية والتصدي للتدريس والعبادة.

وبذلك، ارتبطت العمارة في الصحراء بمحددات تنسجم مع الخصوصية الطبيعية والاجتماعية والتاريخية التي ميزت المنطقة خلال مرحلة ما قبل الاستعمار؛ إذ تلخصت هذه المحددات في إحياء الأرض عبر حفر الآبار والعلم والتجارة والأمن؛ فكان لأنشطة القبيلة، دور مهم في توفير شروط عمارة المنطقة، في المقابل يحصر هذا المعنى الذي تعطيه الكتابات للعمران فعل إعمار الأرض في فئة الزوايا التي تختص بهذه الوظائف المتمثلة في توفير الأمن والعلم وإحياء الأرض، في المقابل تنفي الكتابات هذه الأدوار عن قبائل حسان المحارية.

وفي مقابل هذا المعنى عرفت الصحراء بامتداداتها المختلفة العمارة بالمعنى الضيق المتمثل في الحواضر التي اتخذت شكل أسواق ومراكز علمية حظيت بمكانة أساسية وتطلع إليها البدو باعتبار موقعها في دورة انتاجهم يرتادونها للحصول على ما يحتاجون إليه ويبيعون فيها منتجاتهم، ويقطعون المسافات الطويلة لارتياح أسواقها بالشمال والجنوب (السودان الغربي)، والتي اتخذت هندسة تغلب عليها البساطة.

ثانياً: مداخل قراءة الظاهرة الحضرية وتحولاتها بالغرب الصحراوي

تشكل العمارة مؤشراً أساسياً بأبعاد مركبة تجعل من تجربة العمارة أحد المداخل الأساسية لدراسة تاريخ كل المجالات وفي مختلف الأبعاد الاقتصادية والسياسية/العسكرية والثقافية والدينية، سواء باعتبارها نتيجة مباشرة لهذه الأبعاد مجتمعة أو باعتبار الأبعاد الوظيفية لهذه العمارة التي تضطلع بأدوار اقتصادية وسياسية ودينية...، مما يستوجب البحث في أسباب هذه العمارة وجوبا أو عدما من داخل البنات الاقتصادية والسياسية والأنساق الثقافية لهذه المجتمعات،

1- الحاضرة/ الواحة: الشروط الطبيعية للعمارة الصحراوية

يثبت التاريخ وجود علاقة جدلية بين الشروط الطبيعية وأشكال الاجتماع الإنساني، لذلك خلقت الظروف الطبيعية الصعبة واقعا من الندرة أطر الحياة في أشكالها المختلفة، كما أن الأنهار الكبرى أنتجت حضارات هيدروغرافية حققت بعض أشكال التراكم الاقتصادي والحضاري، فقد كان طبيعيا أن تتأثر تجربة العمارة في الصحراء بالخصائص الطبيعية والمناخية الموسومة بالصعوبة والقحولة وقلة الموارد، وما تفرضه من حركية مستمرة للبحث عن الماء والكلأ، حيث رهننت هذه الاكراهات معطى العمارة وأحاطت بالاستقرار بإكراهات متعددة، كما أعطت هذه المعطيات للمدن شكلا معيناً اختزلته الواحات بما شكلته من فضاء يوفر بعض شروط الاستقرار على مستوى طبوغرافيته وموارده المائية والزراعية، لذلك فقد نبهت الكتابات لعاملين تضاريسيين أساسيين تحكما في نشأة وتطور الحواضر بالصحراء وهي؛ المعطى الأول يرتبط بالفجاج التي تخترق المناطق الجبلية وترتبط الجبال بالأحواض والسهول والصحاري، وشكلت ممرات تجارية وحضارية اجبارية، والواحات التي تشكل شرطا طبيعيا لتشكل الحواضر التي ارتبط معظمها بالأودية والواحات والخوانق أو الفجاج، ولعل غياب هذه الشروط الطبيعية بالصحراء يفسر قلة المدن أو انعدامها خاصة بالساقية الحمراء ووادي الذهب، حيث تفسر هذه المعطيات طبيعة هذه "البلاد السائبة التي ليس فيها زرع ولا نخل"¹⁴، في مقابل أهمية هذه الحواضر بمجال درعة وشمال الصحراء عموما وكذا بمجالات متعددة من مجال شنقيط، ويتجلى هذا التعريف للمدينة الصحراوية باعتبارها واحة في ما أورده الطالب أحمد بن طوير عن حاضرتة وأدان، في أنها عبارة عن واد من النخل، وهو كثير جدا ويتصف بجودة تمره بشكل يميزه عن غيره في مشارق الأرض أو مغاربها¹⁵.

ويفسر هذا المعطى التباين بين المجالات، إذ يشكل مجال درعة حدا فاصلا بين نطاقين حضاريين، حيث تختفي الواحات ومجالات الاستقرار جنوب واد درعة، وهو ما أثبتته الكتابات العربية والأجنبية، فقد أثار انتباه الأجانب غياب الواحات والحواضر بالصحراء إلى غاية أواخر القرن 19، حيث أشار باروخا Baroja إلى أن الصحراء تخلوا من الواحات كما هو متعارف عليه¹⁶، وحتى عندما ظهور السمارة كأول مدينة في مجال الساقية الحمراء فقد استوجب توطينها اختيار مكان خصيب يوفر بعض الشروط الطبيعية

¹⁴ - محمد بن عبد الله البخاري، الحياة العمرانية لأهل برك الله، مخطوط نسخة في حوزة الباحث.

¹⁵ - الطالب أحمد بن طوير الجنة، المنى والمنة، مخطوط سابق، ص: 62.

¹⁶ - كاروباروخا، مصدر سابق، ص 168

السالفة، مما يفسر اشتقاق اسمها من نبات السمار الذي ينبت في مكان يتوفر على بعض المياه، حيث اختار الشيخ ماء العينين تأسيس السمارة على ضفة واد الساقية الحمراء، وهو ما أهله لغرس النخيل، فقد شيد " الدور وغرس النخل..."¹⁷، مما يعني أن تأسيس حاضرة السمارة اخضعها لنفس منطق وشروط نشأة الحواضر بعموم الغرب الصحراوي.

عموما فقد شكل الماء والواحة إطارا طبيعيا لنشأة المدن والحواضر بالصحراء، لذلك فمعظم المدن ارتبطت بهذه الشروط، ومنها تم اشتقاق تسمية عدد من المدن مثل شنقيط تعتبر أبرز حواضر المجال لدرجة حمل معها المجال اسم "بلاد شنقيط"، وهي عيون الخيل، وتطلق على مدينة واقعة فوق جبل¹⁸. وكذلك الشأن بالنسبة لحاضرة وادان التي اشتقت تسميتها من تثنية واد، وأدان إحالة على واد للتمر وآخر للعلم¹⁹.

2- الحاضرة/ السوق: الأساس المادي/ الاقتصادي لنشأة وتطور المدينة الصحراوية

يشكل المعطى الاقتصادي شرط تشكل كل حضارة باعتباره أساسها المادي، وشرط انتظامها وتشكلها، فعلى الرغم من واقع الندرة الذي يميز حضارات الصحراء، فقد شكل البحث عن الموارد الاقتصادية والطبيعية موجها للبدو في حركيتهم وسلوكهم الاجتماعي، كما أن طابع البداوة الذي وسم المجال لم ينفى مكانة الصحراء داخل اقتصاد حوض المتوسط من خلال احتضانها للتجارة، فشكلت هذه التجارة الشرط المادي لتشكل البنيات القبلية والدولية والمجالية، إذ بات من المتواتر الربط بين المدن والتجارة الصحراوية والحديث عن تطابق خريطة الحواضر والمسالك التجارية، ويفسر ذلك بهوية المدينة بالعالم الإسلامي، والتي هي سوق ومركز تجاري في الأصل، ويرتبط بنشاط هذا المسلك تطور المدينة من حيث إشعاعها أو انهيارها، وفي هذا الاطار أورد السعدي أن ظهور مدينة تنبكت كان نتيجة لخراب مدينة بير

¹⁷ - أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدياء شنقيط، م.س، ص:439.

¹⁸ - نفسه، صص:422-423.

¹⁹ - Christine Daure-Serfaty, *la Mauritanie, éditions L' harmattan, Paris, 1993,*

على ايدي الطوارق أواخر القرن الخامس الهجري²⁰، وكذلك الشأن بالنسبة لنشأة تكاوست على انقاض نول لمطة.

لقد ظلت خريطة انتشار الحواضر في الصحراء متحركة نتيجة للتحويلات الاقتصادية التي مثلها التحول المستمر للمسالك التجارية وتراجع التجارة الصحراوية، وما ترتب عنه، إذ استلهمت الحواضر في الصحراء الخصائص السوسيوإقليمية للمنطقة، وارتبط تطور هذه الظاهرة الحضرية الغربية عن المنطقة بشرطين، تجلى الشرط الأول في الأنشطة التجارية، إذ تطورت الحواضر في ارتباط بالأنشطة التجارية، بما يعكسه تطابق خريطة توزيع المدن بالمنطقة وخريطة مسالك التجارة، وتغيرها بالموازاة مع تطور هذه المسالك²¹، وهو معطى أسهبت كثيرا في الحديث عنه المصادر بمختلف أشكالها مبرزة الأنشطة التجارية لحواضر الصحراء على غرار كل كل حواضر العالم الإسلامي، فقد ظلت وظيفة السوق الوظيفة الأبرز في هوية المدينة، وهي الوظيفة المفسرة لتطور هذه المدن وبنيتها، حيث يحتل السوق والمرافق المرتبطة به المكانة الأبرز، ون ذلك ما نقله السعدي في سياق حديثه عن يفية تطور مدينة تنبكت التي بدأت في شكل مخزن لمتاع الطوارق الذين جعلوها " خزانة لمتاعهم وزروعهم على أن صار مسلكا للسالكين في ذهابهم ورجوعهم، و خازنهما متهم مدعوة بتنبكت، فسمي الموضع بها، ثم أخذ الناس يسكنون فيها ويزداد بقدره الله وارانته في العمارة، ويأتيه الناس من كل جهة ومكان حتى صار سوقا للتجارة، وأكثر الناس اليه ورودا للتسوق...، وسكن فيه الاخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل بلد من اهل مصر ووجل وفزان وخدامس وتوات ودرعة وتفلالة وفاس وسوس وبيط إلى غير ذلك، ثم انتقل الجميع إلى تنبكت قليلا قليلا"²².

ويفسر ذلك كيف تتشكل المدينة وتتطور في ارتباط بوظيفتها كسوق، ذلك أن ساكنة هذه المدن ترتبط بشكل كبير بهذه الوظيفة، حيث تستقطب هذه الأنشطة فئات متعددة من تجار ويهود مع تأثير بارز

²⁰ - عبد الرحمان السعدي، مصدر سابق، ص 20

²¹ - عبد العزيز العلوي، مرجع سابق، ص ص: 427-429.

²² - عبد الرحمان السعدي، تاريخ السودان، ترجمة: هوداس دولافوس، منشورات المدرسة الباريزية لتدريس اللسان

الشرقية، باريس، 1981، صص 20-21

لعنصر الرقيق، وفي هذا الإطار تركزت معظم الحواضر داخل المسالك في مجال درعة ووادنون وأطار والشرق الموريتاني...

وقد حافظت هذه الأنشطة على أدوارها في تأطير الدينامية العمرانية بالأوساط الصحراوية إلى غاية الفترة المعاصرة، ويكفي في هذا الإطار استحضار تجربة تأسيس مدينة تندوف من طرف قبائل تجكانت التي ورثت تقاليد لمتونة التجارية داخل مسار تجاري، ودراسة التحول الذي عرفته التجارة الصحراوية بإحداث هذه المحطة التجارية الجديدة، كما أن هذه مركزية هذا المادي يفسرها تأسيس الشيخ ماء العينين لحاضرة السمارة على تقاطع طريق تجاري بشكل يضمن إقامة سوق ومركز تجاري وسيط في قلب الصحراء.

كما أن اندراس وانهايار المدن الداخلية وانتقال مركز الثقل العمراني نحو الشرط الساحلي الأطلسي يرتبط بشكل وثيق بهذا التحول البنيوي للتجارة ومسالكها، كما أن هذا العامل التجاري يفسر معظم التحولات الجزئية أو البنيوية التي عرفتها الخريطة الحضرية بعموم العالم الإسلامي خاصة بهذه المجالات الصحراوية، في المقابل احتفظت العواصم السياسية والقواعد المخزنية بمرتكزات أخرى لنشأتها ضمننت لها الاستمرارية في مواجهة التحولات الاقتصادية.

3- ثنائية المستقرين والرحل في علاقتها ببنية المجتمع الصحراوي

لم يكن الرعي²³ معطى إنتاجي فحسب، بل هو نمط حياة بأبعاد مجتمعية وثقافية مركبة، ويفسر ذلك ضعف تعاظم أهل الصحراء مع الأنشطة التجارية على الرغم من الدينامية التجارية التي عرفها المجال

²³ - الرعي نمط سوسيواقتصادي سائد في أوساط مجتمع البيضان غير أننا نعتبر أن قبائل حسان باعتبار قدراتها العسكرية ومجالاتها الرعوية الواسعة أقدر على التوغل في الفيافي، وفي ذلك نتبنى الطرح الخلدوني الذي يميز داخل البدو بين رعاة الغنم ثم رعاة الإبل الأقدر على التوغل في الصحراء، وهو الطرح الذي تبناه الأجانب مثل صوفيا كارتيني Sophie Cartini التي تحدثت في دراستها للرقبيات كقبائل غلب عليها طابع الغزو على أنها قبائل تعتمد على الإبل في عيشها، في المقابل نعتبر الزوايا أميل للاستقرار وتأسيس الحواضر انسجاما مع نمط عيشهم وإنتاجهم. - أنظر: - عبدالرحمان ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق وتعليق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، مصر، 2005، صص: 165-166.

في فترة معينة، وشيوع قيم وتمثلات تعلي من شأن القطيع وتعتبره البنية الإنتاجية المعبرة عن المكانة الاعتبارية باعتبار ارتباطه بالبداوة وبنمط إنتاج العنصر العرب أو من في معناهم على حد تعبير ابن خلدون. في مقابل ازدياد الأنشطة الإنتاجية الأخرى في أوساط الصحراء كاهو الشأن بالنسبة للزراعة، وفي هذا الإطار فصل ابن خلدون في طبيعة اقتصاد البداوة في حديثه عن العرب واقتصادهم القائم على الرعي والغزو "فأرزاقهم على رماحهم"، على حد تعبير ابن خلدون²⁴، مما يفسر ضعف تعاطي الأنشطة الأخرى، لذلك سجل بول مارتى Paul Marty ضعف اقتصاد قبيلة أولاد دليم من خلال محدودية الأنشطة التجارية وانعدام الأنشطة الزراعية، مما جعل هذه القبيلة شأنها شأن بقية قبائل حسان تعتمد أساسا على الرعي والترحال²⁵، وهو حال معظم قبائل الصحراء ذات السلوك المحارب، وتفسر هذه البنية الإنتاجية شيوع نمط الترحال والبداوة وضعف الاستقرار في أوساط مجتمعات الصحراء، فانهصر الاستقرار في أوسط فئات محدودة عبر تشمل الحراطين والزوايا أو القبائل العاملة، وقد شكلت ثنائية المستقرين والرحل أحد أبرز الثنائيات التي قرأت على ضوءها الكتابات الأجنبية تاريخ الدول المستعمرة، حيث دافعوا عن وجود تعارض وصراع بين المستقرين والرحل، بما يعنيه ذلك من التقابل بين نمطين إنتاجيين وثقافيين متناقضين، بل لقد أعطى الأجانب لهذا التقابل والتعارض بعدا عرقيا فحسان هم العرب والزوايا هم الامازيغ (البربر).

وفي ارتباط بالتعارض الوظيفي بين المستقرين والرحل يتخذ هذا التنافس أبعادا اجتماعية لا تخطئها العين، بما يعبر عنه من تعارض اجتماعي بين فئات اجتماعية تخضع لتراتبية وظيفية روجت لها الكتابات الأجنبية ذات النزوع الكولونيالي، واستعملت خطاطتها في قراءة تاريخ الغرب الصحراوي في شموليتها، حيث سهل لهم الحديث عن التعارض بين فئات حسان المحاربة وقبائل الزوايا العاملة الحديث عن الأصل الاثني والعريقي لهذه التراتبية والحديث عن حالة الصراع الدائم بين المكونين والترويج لثنائية أخرى عرب وأمازيغ، فحسان هم البدو المحاربين الذين تعودوا على احتكار الأصل العربي نظريا، والزوايا

²⁴ - عبد الرحمان بن خلدون، مصدر سابق، ص: 190.

25- Paul Marty, **Les tribus de la Haute Mauritanie** » Leroux, Paris, 1915, pp29-30.

هم القبائل العالمية، ذات الأصل الامازيغي، التي احتكرت وظيفيا الأنشطة الدينية والعلمية، إذ كان " أغلب سيرها في تعلم العلم وتعليمه وتعمير الأرض بحفر الآبار وتسيير القوافل"²⁶ وبذلك كان الزوايا يعتبرون أنفسهم "فخر البلاد وعمارتها ونورها علما وصلحا ودينا وثروة، فهم أهل الأموال الطائلة، أهل أنباط الآبار وتفجير العيون، حرث الحبوب وغرس الشجار وأهل التجارة.." ²⁷. ولذلك يفسر اختيار هذه العناصر الوظيفية لأماكن وجود الواحات والأنشطة الزراعية والتجارية، حيث توفر الواحات شروط تطور أنشطة فلاحية تحترفها عناصر الزوايا²⁸، مما يفسر احتكار قبائل الزوايا لتأسيس المدن والعمارة في الصحراء بالنظر لميولها للاستقرار، كما أن هذه الأسس الاقتصادية والدينية إلى جانب كونها شرطا لتطور الظاهرة الحضرية في المجال، فهي عوامل لازدهار وتطور المدن .

وبذلك فارتباطا بهذه الخصوصية ارتبط الاستقرار وتأسيس الحواضر في عمومها بالزراعة والتجارة، لذلك كان طبيعيا أن يكون الزوايا أميل إلى الاستقرار، حيث يكشف تاريخ الحواضر بالمجال عن ارتباط كل حاضرة بقبيلة زاوية معينة، كما أن تباين توزيع هذه الفئات بين مناطق المجال أنتج اختلافا كبيرا في انتشار الحواضر والمراكز بالمجال، ذلك أن قلة قبائل الزوايا بالشمال (المغرب الصحراوي) وغلبة النموذج المحارب أفضى إلى قلة الحواضر بالمجال، في مقابل كثرتها نسبيا بالجنوب (مجال موريتانيا الحالي)، إذ برز التأثير القوي للزوايا في الجزء الجنوبي من "بلاد البيضان" بفعل كثرة قبائل الزوايا وثقلها الديمغرافي وانتشار أبرز الحواضر التي أنتجها المجال، حيث انعكست طبيعة الخريطة القبلية للزوايا ببلاد البيضان على خريطة الحياة الثقافية التي تركزت معظم مظاهرها ومراكزها بالجنوب، في المقابل طغت البداوة بشمال "بلاد البيضان".

-- 26- أحمد بن الامين الشنقيطي، مصدر سابق، ص: 478.

27- أزيد بيه بن محمد محمود، الزوايا في بلاد شنقيط في مواجهة الاستعمار الفرنسي: فصول في التاريخ السياسي الموريتاني الحديث، تقديم: محمد المختار ولد باه، الطبعة الثانية، المطبعة الوطنية، نواكشوط، 2003، ص: 27.

28- Abdel wedoudould cheikh, " Nomadisme, Islam et pouvoir politique dans la société maure précoloniale (Xème- XIXème siècle) Essai sur quelques aspects du tribalisme", Paris V, Doctorat d'Etat, en Sociologie, 1985, pp83-84.

4- المدينة/ الزاوية: الأساس الديني والميثولوجي لنشأة وتطور المدينة الصحراوية

تأطرت تجربة العمارة في الصحراء بعاملين أساسيين يختزلان مسار المدينة بالمجال وبالعالم الإسلامي في شموليته، إذ يتجسد المعطى المادي في التجارة والمعطيات الطبيعية المادية من ماء وواحة وثروات وغيرها، إلى جانب المعطى الرمزي اللامادي الذي يتخذ طابعا ثقافيا ودينيا يعكسه الحاضرة في تأسيسها وتطورها بمعطى ديني تشكله الزاوية أو ولي صالح وما تنسب إليه من كرامات وغيرها، حيث شكلت القداسة عاملا أساسيا فس تشكل ذهنية انسان الصحراء في صراعه من أجل تطويع الطبيعة الصحراوية الصعبة وفي مواجهة القوى المختلفة، واضفى هذه القدسية على المجال بمختلف مستوياته، مما يفسر تمثل منطقة الساقية الحمراء باعتبارها أرضا للقداسة بامتياز²⁹، وهي الخاصة امتدت لتؤطر نظرة كل قبيلة لجغرافيتها وحواضرها، وأقامت علاقة قوية بين الإنسان والمجال، وفي هذا الإطار ارتبطت نشأة معظم الحواضر بكرامة أو مرؤي يؤدي وظيفة الرواية المؤسسة للمدينة يبدأ من تبرير اختيار مكان المدينة والتأريخ لسياق تشييدها ويسند هذا التأسيس لولي صالح أو شخصية دينية معينة، وهو معطى يتكرر في معظم حالات تأسيس هذه الحواضر.

كما تبرز هذه الأبعاد الدينية في ارتباط معظم الحواضر بزاوية أو رباط أو معلمة دينية معينة، تضمن لهذه الحاضرة الإشعاع والوظيفة الدينية والعلمية التي ظلت إحدى الوظائف الأساسية التي اضطلعت بها معظم الحواضر وضمنت لها صيتا وشهرة طبقت الافاق، وهو حال مدن شنقيط ووادان وولاتة وتنبكت والسامرة وتندوف وغيرها، وفي هذا الإطار يتحدث ابن طوير الجنة ضمنا عن هذا الشرط في نشأة المدينة الصحراوية من خلال نموذج مدينة وادان في حديثه على أن " أصل اشتقاق وأدان تثنية واد من العلم وواد من النخل"³⁰، ويتأكد هذا المعطى من خلال قراءة الوقع الذي أحدثته الزوايا على نشأة وازدهار حواضر الصحراء، وفي هذا الإطار نستدل على ارتباط حاضرة اساء في جنوب شرق المغرب بزاوية اساء،

²⁹ _ تنعت الساقية الحمراء بأرض القداسة بفعل احتضانها لمدافن عدد كبير من الأولياء والصلحاء مثل سيد أحمد

الرقبيبي وسيد أحمد لعروسي والعيافة وأبناء ابي السباع السبعة وسيدي عبد الرحمن التهالي والشيخ مربيه ربه...، بالإضافة إلى زاوية الشيخ ماء العينين، مما جعل المنطقة مجالا للقداسة بمختلف اشكالها.

أنظر : - محمد دحمان، الساقية الحمراء إبان تأسيس زاوية السامرة: مقارنة سوسيو-تاريخية، السامرة: الحاضرة الروحية والجهادية للصحراء المغربية، الطبعة الثانية، منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2002، ص93.

³⁰ - الطالب احمد ابن طوير الجنة، مصدر سابق، ص:61.

وما ارتبط بها من دينامية عمرانية ودينية وتجارية، بالنظر لنشأة مواسم تجارية ترتبط بهذه الزوايا، كما شكلت زاوية الشيخ ماء العينين نواة لحاضرة السمارة التي ارتبطت في نشأتها بالأنشطة الدينية والجهادية للشيخ ماء العينين الذي اتخذ منها قاعدة لجهاد الاستعمار، وفي الإطار نفسه نكتشف وقع الأنشطة العلمية على المستوى العمراني من خلال نموذج حاضرة تنبكت في أقصى جنوب المجال التي اكتسبت صيتها من خلال أنشطتها الدينية والعلمية، حيث أسدلت هذه الأنشطة هوية متميزة على هذه المدينة داخل العالم الإسلامي.

ثالثا: الخريطة الحضرية وتحولاتها بمجال الغرب الصحراوي

خلقت العوامل الاقتصادية (التجارة) والطبيعية والدينية الشروط المتحكمة في نشأة وتطور الحواضر بالمجالات الصحراوية للغرب الصحراوي الذي يغطي الصحراء المغربية وموريتانيا وشمال مالي وغرب الجزائر، وافرز التحول الذي تعرفه هذه الشروط عن حركية خريطة المراكز الحضرية وتحولاتها على مستوى ظهور مدن واندراس وانهار أخرى، وهو ما تكشفه طوبونيميا المجال وثبته المعطيات التاريخية خاصة منذ الفترة الوسيطة، مع التأكيد على صعوبة التأريخ لسياقات نشأة هذه المراكز الحضرية، بالنظر لغياب الأبحاث الأركيولوجية، لذلك يتم الاكتفاء بالمادة المصدرية، والتي تقدم مادة تتيح تقديم جرد أولي ومعطيات مقتضبة، نقدم على أساسها جردا لأبرز حواضر والمراكز العمرانية بمجال الغرب الصحراوي، وذلك على النحو التالي:

✓ **حواضر واد نون:** يشكل مجال وادنون حوض خصب على مقدمة جبال الاطلس الصغير، مما جعل منه ممرا تجاريا وسيطا بين شمال وصحراء المغرب ومقدمة المجال الصحراوي، ويتوفر على خصائص طبيعية ملائمة لخلق شروط الاستقرار، لذلك ظل بدو المجال ينظرون إلى هذا المجال باعتباره موطن "الخضرة الدائمة والسواقي الجارية والأسواق والمواسم"³¹، مما يفسره احتضان المجال لتجربة تحضر مبكرة، حيث تحدثت المصادر عن حاضرة نون لمطة، التي شكلت مركزا

31 _ محمد سالم بن لحبيب بن عبد الحي، جوامع المهمات في أمور الرقيبات، تحقيق: مصطفى نعي، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1992، ص 61.

صنهاجيا خلال القرن 11م/5هـ، واندرست نتيجة لاعتبارات سياسية اختزلتها ظروف الصراع الموحدى المرابطي، وظروف طبيعية ترتبط بفيضانات الاودية المحيطة، وعلى أنقاضها ظهرت تكاوست التي وصف الوزان طبوغرافيتها وغناها³²، واستمر إشعاعها إلى غاية انتقال هذا الثقل والإشعاع لمدينة كلميم كمركز تجاري قريب وحاضن لمكانة مجال وادنون وموارده، مما يعكس حجم التحولات التي عرفها المجال، والتي ارتبطت بتحول مسالك التجارة والفاعلين فيها من تجار وغيرهم.

✓ **حاضرة شنقيط**: تعتبر من أبرز حواضر المجال لدرجة حمل معها المجال إسم "بلاد شنقيط"، وهي عيون الخيل، وتطلق على مدينة واقعة فوق جبل، تأسست منذ أكثر من خمسمائة سنة³³، وتقع شنقيط في منطقة أدرار³⁴، وتنسب لقبيلة ادوعل، كما كان معهم من الزوايا السماسيد والأغلال قبل خروجهم من شنقيط وإخلائها³⁵، ويعود الفضل في إشعاع هذه الحاضرة التي طبقت شهرتها الأفق إلى كونها منطلق الركب الحاج الذي كان ينسب لها في وسم الركب بالركب الشنقيطين حتى أصبح أسمها يطلق على كل المجال والمنحدرين منه الذين يوسمون بالشناقطة، فقد " كان الركب يمشي من شنقيط إلى مكة كل عام، ويتعلق بهم كل من أراد الحج من سائر الأفق"³⁶.

✓ **حاضرة وادان**: غير بعيد من حاضرة شنقيط داخل منطقة أدرار تطورت مدينة وادان التي عرفت بأدوارها التجارية، وتحمل تسمية وادان إحالة على واد للتمر وأخر للعلم³⁷، وهو ما أكده صاحب رحلة "المنى والمنة" في ما مؤداه أنه وجد صدق وادان وصل لطرابلس، وفي ذلك نورد قوله إن أهل هذه البلاد يقولون "ما العلم إلا واداني وما التمر إلا فزاني وما العبد إلا سوداني"³⁸، وهو ما أثار استغرابه، حيث عبر عن ذلك في قوله "فتأملت في قلبي من أطار علم وادان إلى طرابلس مع بعد الشقة جدا، ففهمت أن سبب ذلك أن وادان في الزمن القديم العلم فيه كثير جدا والعلماء فيه كثيرون جدا حتى أنك لتجد فيه أربعين دارا متوالية كل واحدة فيها عالم، فكيف بعالمين أو ثلاثة بينهما دار أو داران ونحو ذلك"³⁹، وهو بذلك يضيف عاملا آخر ساهم في نشأة وازدهار و إشعاع الحواضر داخل الغرب

– محمد حسن الوزان، وصف افريقيا، مصدر سابق، ص111³²

³³– أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم ابااء شنقيط، م.س، صص:422-423.

Christine Daure-Serfaty, op.cit, p 6.³⁴

³⁵– أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدياء شنقيط، م.س، ص:426.

³⁶– نفسه، ص:426.

³⁷ – Christine Daure-Serfaty, op.cit, p15.

³⁸– الطالب أحمد بن طوير الجنة، مصدر سابق، ص:61.

³⁹– نفسه، ص:61.

الصحراوي، وذلك ما يفسر أن " أصل اشتقاق وأدان تثنية واد من العلم وواد من النخل"⁴⁰، وتعتبر هذه الشهادة عن واقع ميز القرن التاسع عشر، بالرغم من الالتباس الذي يمكن أن تترجمه تسمية وأدان لدى أهل طرابلس، والتي تحيل كذلك على إحدى حواضر هذه البلاد، عكس ما اعتقده العالم الشنقيطي من أن الكلام المتواتر يعبر عن انتشار صيت حاضرتة، حيث شكلت هذه الأسس الممثلة في العلم والنخل والماء شروطاً لتطور الحواضر في الصحراء عامة سواء الغرب الصحراوي أو صحراء طرابلس. عموماً فقد ارتبطت حاضرة وأدان بقبيلة ادولحاج من الزوايا، وهو ما يؤكد صاحب "الوسيط" في حديثه عن الصراع بين ادوعلبي بشنقيط وادولحاج بوادان، وهو الصراع الذي تحول إلى صراع بين الحاضرتين⁴¹، إلا أن ذلك لا ينفي أنها كغيرها من الحواضر ظلت مفتوحة أمام الرحل عامة، غير أن المعطى القبلي يظل حاضراً وموجهاً للحياة في هذه الأوساط، وبالتالي في تنظيم المجال وتبلور الحواضر.

✓ حاضرة ولاتة: تشكل إحدى حواضر شرق منطقة الحوض⁴² أطلق عليها ابن بطوطة خلال القرن الرابع عشر إسم ايولاتن وأخبرنا أن قاطنيتها من قبيلة مسوفة الصنهاجية⁴³، ويرتبط تأسيس هذه الحاضرة شأن غيرها من حواضر المجال أشد الارتباط بالزوايا سواء في التأسيس، حيث تنسب الرواية الشفوية المتواترة فتح وأسلمة المدينة، التي كان معظم ساكنتها من اليهود، إلى جد قبيلة المحاجيب من الزوايا، كما تحيط الذاكرة هذه الحاضرة بالكثير من الكرامات والأساطير⁴⁴ التي تشكل الأساس الديني الذي تأسست وتطورت الحاضرة عبره، وبالنظر إلى اعتبار المحاجيب قبيلة مؤسسة تشكل معظم ساكنة المدينة، وإلى جانبهم سكن الحاضرة بعض قبائل الزوايا الأخرى مثل: ايديلب وبارتيل والشرفاء، حيث اجتمعت كل قبيلة في حي معين⁴⁵، مما يعكس حضور المعطى القبلي وتحكمه في تنظيم المجال داخل هذه المناطق، وهو الشكل الذي اتخذته توسع المدينة الصحراوية، حيث اتخذت الأحياء شكل فركان، مما يفسر توزيع القبائل حسب الأحياء.

⁴⁰ - نفسه، ص: 61.

⁴¹ - أحمد بن الأمين الشنقيطي، مصدر سابق، ص ص: 506-507.

⁴² - Christine Daure-Serfaty, op.cit, p13.

⁴³ - رجال بوبريك، المدينة في مجتمع البداوة: التاريخ الاجتماعي لولاتة خلال القرنين 18-19 مع تقديم ونشر تاريخ ولاتة، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس - السويسي، الرباط، 2002، ص: 11.

⁴⁴ - نفسه، صص: 12-13.

⁴⁵ - رجال بوبريك، مرجع سابق، ص: 17.

✓ حاضرة تنبكت: تعتبر إحدى أهم حواضر جنوب المجال، في مجال أزواد الحالي، والتي اضطلعت بأدوار اقتصادية وسياسية كبيرة، وشكلت بشكل مستمر مجال صراع بين الدول المركزية بإفريقيا الغربية خاصة مالي وقبائل الطوارق، التي أسست هذه الحاضرة، وهو ما أقره السعدي في نص فريد يعرض فيه لنشأة وتوسع تنبكت ويختزل سياق هذه النشأة وعواملها في قوله "نشأت تنبكت على أيدي الطوارق أواخر القرن الخامس الهجري، فظلوا فيها راتعين وفي الصيف في ساحل البحر...، فجعلوها خزانة لمتاعهم وزروعهم على أن صار مسلكا للسالكين في ذهابهم ورجوعهم، و خازنهما امرأة منهم مدعوة بتنبكت، فسمي الموضع بها، ثم أخذ الناس يسكنون فيها ويزداد بقدرة الله وارانته في العمارة، ويأتيه الناس من كل جهة ومكان حتى صار سوقا للتجارة، وأكثر الناس إليه ورودا للتسوق...، وسكن فيه الاخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل بلد من اهل مصرووجل وفزان وادماس وتوات ودرعة وتغلالة وفاس وسوس وبيط إلى غير ذلك، ثم انتقل الجميع إلى تنبكت قليلا قليلا"⁴⁶.

وقد استفادت هذه المدينة في تطورها من انهيار حاضرة بير⁴⁷، ويصفها الوزان في قوله إن تنبكتو مدينة فيها دكاكين كثيرة للصناع والتجار، وتحدث عن غنى سكانها وحياة الترف التي يعيش فيها⁴⁸.

✓ حاضرة تنيقي: أول حاضرة تأسست في "مجال البيضان" بعد رباط عبد الله بن ياسين وحاضرة أزوقي، وكانت قبيلة تجكانت من الزوايا هي التي أشرفت على تأسيس هذه الحاضرة في أوائل القرن السادس الهجري بين شنقيط و أدانبادرار، وأقاموا بها حوالي أربعة قرون، تميزت خلالها هذه الحاضرة بأهمية العمارة والعلم والدين مستفيدة من احتضانها لتجكانت التي ارتبط إسمها بالعلم حتى بات يقال "العلم جكني"، بما مكن تنيقي من التفوق على ودان وتشيت وشنقيط، كما استفادت هذه الحاضرة من دينامية الأنشطة التجارية⁴⁹.

✓ حاضرة تقبة: أدت الحروب إلى تفرق قبيلة تجكانت شدر مدر، حيث أخلت تنيقي، وأسس بعضهم حاضرة تقبة بضواحي اوداغست، وذلك حوالي القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر

⁴⁶ - عبد الرحمان السعدي، مصدر سابق، صص 20-21

- عبد الرحمان السعدي، مصدر سابق، صص 22⁴⁷

- محمد حسن الوزان، مصدر سابق، صص 165-166⁴⁸

⁴⁹- الشيخ عبد العزيز بن الشيخ الجكني، ثمرات الجنان في شعراء بني جاكنا، الطبعة الأولى، دار المحبة دمشق ودار أية بيروت، 2004/2005، صص: 93-94.

الهجري، وهي مدينة تشاكل تنيقي كما وكيفا، بمعنى استيعاب المقومات العلمية والحضارية التي شكلت أسسا لتطور حاضرة تنيقي⁵⁰، إلا أنها فاقتها بامتدادها على مناطق شاسعة للزراعة، كما اندفعت تجكانت لتطویر قدراتها ومناعتها في مواجهة هذا المحيط العدائي، فكانت هذه الرزايا التي واجهتها تجكانت سببا في مزجها بين السلاح والقلم لتتنظم في إطار "رزايا الشمس"⁵¹.

حاضرة تندوف: تقع في الجنوب الغربي الجزائري، أسسها الشيخ محمد المختار بن الاعمش خلال القرن التاسع عشر داخل مجال تشغله قبائل الركيبات، مما خلق صراع بين القبيلتين حول حيازة مجال تندوف، وهو معطى يتكرر في حالات حواضر كثيرة، وقد تأسست داخل مسلك تجاري عرف ازدهارا كبيرا بعد تأسيس هذه الحاضرة⁵² التي ورثت حاضرة تنيقي بعد هجرة تجكانت نحو الشرق بعد انهيار حاضرتهم تنيقي كما اتجه بعض فروع تجكانت لتندوف.

حاضرة السمارة: أقدم حواضر الساقية الحمراء "عمرها الشيخ ماء العينين وبنى فيها الدور وغرس النخل...، وهي أصلا للركييات"⁵³، وهي الشهادة التي نقلها صاحب "الوسيط" الذي عاصر هذه التحولات، بالتالي فإن تأسيس هذه الحاضرة كان على يد الشيخ ماء العينين، وذلك منذ أواخر القرن التاسع عشر، حيث شيد القصبنة سنة 1898 وبعدها المسجد والبيوت، إذ استفاد الشيخ مما اجتمع له من الأنصار والمريدين، مما جعل تأسيس الحاضرة في البداية باعثة تحقيق هذه الأهداف التنظيمية التي اقتضتها الحركة الجهادية للشيخ، والخلاصة الثانية هي ارتباط المدينة لاحقا بأسرة الشيخ المؤسس وبالركييات أساسا إلى جانب العروسيين، كما ارتبط تأسيس الحاضرة بالأساس المادي الذي يعكسه تأسيس الحاضرة في تقاطع طريق تجاري في قلب الصحراء.

ومن خلال هذا العرض لبعض الحواضر التي تطورت بالصحراء يمكن للدارس الخروج بالخلاصات الآتية:

⁵⁰ - نفسه، ص: 101.

⁵¹ - نفسه، ص: 107.

⁵² - نفسه، صص: 99-100.

⁵³ - أحمد بن الأمين الشنقيطي، مصدر سابق، ص: 439.

تثبت هذه البطاقة التعريفية لأبرز حواضر الغرب الصحراوي ما اثبتناه في تفسير نشأة وتطور العمارة في المجالات الصحراوية من خلال ربط تأسيس وتطور الحواضر في الصحراء بالمحدددين الديني والاقتصادي المادي، إذ يتجلى الأساس الأول في القداسة التي تحيط بتأسيس ومكانة أي من هذه المدن، وتتجلى في الكرامات المرتبطة بمرحلة التأسيس والأولياء و الصلحاء الذين يحتضنهم مجال هذه الحواضر، والأساس المادي، ويجسده الدور التجاري الذي اضطلعت به هذه الحواضر من خلال موقعها داخل مسلك تجاري معين أو تحولها إلى سوق تلعب دور الاستقطاب والتوزيع، ويتخذ هذا الأساس مظهرها آخر من خلال المعطيات الطبيعية التي تشكلها الواحة والواد أو المرتفع الذي يوفر الشروط الضرورية لحياة البدو، وهي: الماء والظل والحطب...

يتأكد قيام ثنائية الرحل والمستقرين على أسس وظيفية، فالترحال غلب على القبائل المحاربة الكبرى مثل تكنة وأولاد دليم والركيبات وغيرها، في المقابل كانت الأنشطة الاقتصادية لفئات الزوايا أو القبائل العاملة عاملا مفسرا لميول هذه المكونات للاستقرار، مما يفسر قلة الحواضر وهيمنة الترحال الذي تأسس على نمط انتاج وذلك على قيم ونسق ثقافي يؤصل لقيم الازدراء تجاه الاستقرار وما ارتبط به من حواضر وعمارة، وتبرز هذه المواقف العدائية من خلال هجمات هذه القبائل المتكررة على الحواضر التي تحولت بفعل مسالمة قاطنيها، في الغالب، إلى فريسة سهلة تحت رحمة قبائل حسان المحاربة⁵⁴ لدرجة أصبحت معها العمارة تفرض على الزوايا مداراة القبائل المحاربة ودفع شرها عبر المغارم، وبذلك نصح الشيخ أحمد البكاي الحاج عمر فوتي، إذا صدقنا ما ورد في مخطوط "جواهر الحسان في أخبار السودان" الذي نقل قول الشيخ البكاي للحاج عمر في شأن التوارق، "فمطلبي أن تساكنتهم لعمارة هذه الأرض لا سيما

⁵⁴-Rahal boubrik, la ville dans la société bédouine histoire sociale de la ville de walata avec la publication de la institut Des études africaines ,université Mohammed 5 souissi, Rabat,2002,pp 11-12 chronique de walata

تنتبكت، فإنها لا عمارة لها إلا بالتوارق، ولا أريد أن تقرهم على الظلم بل انههم عنه وردهم عنه...، فإن أهل البوادي وأرباب المواشي هم عمارة الأرض والقرى"⁵⁵.

لقد لعبت الحواضر دورا مهما في احتضان وتعهد الحياة الفكرية والدينية داخل الصحراء الكبرى خاصة منطقة الغرب الصحراوي، حيث كانت حواضر شنقيط وولاتة والسامرة وغيرها، رمزا لهذه الدينامية الفكرية التي عرفها المجال، كما لعبت الحواضر في المجال دورا أساسيا في رعاية التواصل الفكري والروحي الغرب الصحراوي والمجالات المتاخمة لها في إفريقيا جنوب الصحراء أو المجالات البعيدة في مصر والحجاز، حيث كانت هذه الحواضر منطلقا للقوافل التجارية، ولعبت دورا مهما في تنظيم واحتضان ركب الحج، وهو الدور الذي قامت به شنقيط⁵⁶ أو باعتبارها محطة من المحطات التي يمر عبرها ركب الحج كما هو الشأن بالنسبة لولاتة وتوات⁵⁷ وغيرها.

⁵⁵ - مولاي أحمد بن بابيرالاوراني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مركز الوثائق والمخطوطات، جامعة نيامي، النيجر، مخطوط رقم 106، ص: 29.

⁵⁶ - ركب حج البيضان كان يخرج من شنقيط خلال القرن التاسع عشر وينسب لها في إطار الركب الشنقيطي. -أنظر: - الخليل النحوي، "بلاد شنقيط... المنارة والرباط"، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987، ص: 110.

⁵⁷ - أحمد بن أبي بكر البرتلي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق: محمد حجي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ت، ص: 48.

خاتمة

تشكل دراسة الظاهرة الحضرية بالمجالات الصحراوية مدخل لدراسة هذه القضايا في أبعادها المركبة، ذلك أن العمارة تشكل المؤشر المادي للحضارة في تفاعل أبعادها المادية/ الاقتصادية (التجارة والزراعة والثروات..) والرمزية (الدين والثقافة..) والمجتمعية (القبيلة والتنظيم) والسياسية، وقد سجلنا تفاعل هذه الأبعاد وانصهارها في وسم الظاهرة الحضرية بهوية جعلها تتساقق والخصوصيات المشكلة للصحراء كفضاء و حضارة، وهو ما أوامنا إليه في حديثنا عن عمارة البداوة، كما تشكل دراسة العمارة البدوية مؤشر على التحولات التي عرفها مجتمع الصحراء من البداوة إلى الاستقرار، حيث عرفت مجتمعات الصحراء في عموم العالم تحولات عميقة وحادثية، بالنظر لسياقها الزمني وتسارع مظاهرها، وما أنتجته من تضخم لنسب الاستقرار وظهور مدن كبرى، فرضت تحضرا ماديا يسائل شروطه الثقافية وحدوده، وما يطرحه ذلك من إشكاليات كبيرة في الفترة الراهنة، مما يفسر راهنية إشكاليات المدينة في هذه الأوساط وما تعكسه من خصوصية تتجاوز ماهية هذه العمارة وخصائصها و السياقات لتشمل الأبعاد الفنية والوظيفية المختلفة.

فهرس المراجع والمصادر:المصادر والمخطوطات بالعربية:

- الإدرسي الشريف ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الإقليم الثالث، الجزء الأول، منشورات مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2002.
- البكري أبو عبيد الله عبد الله، المسالك والممالك، تحقيق: جمال طلبة، (جزآن)، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003/1424.
- الاوراني مولاي أحمد بن بابير، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مركز الوثائق والمخطوطات، جامعة نيامي، النيجر، مخطوط رقم 106.
- ابن خلدون عبد الرحمان ، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتصدير، القاهرة، 2005.
- البرتلي أحمد بن أبي بكر، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق: محمد حجي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ت.
- بن طوير الجنة أحمد ، المنى والمنة، نسخة بمكتبة نواكشوط، عدد 2777، موريتانيا.
- البخاري محمد بن عبد الله ، الحياة العمرانية لاهل بآرك الله، مخطوط نسخة في حوزة الباحث.
- بن عبد الحي محمد سالم بن لحبيب، جوامع المهمات في أمور الرقيبات، تحقيق: مصطفى نعيمي، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1992، ص 61.
- السعدي عبد الرحمان، تاريخ السودان، ترجمة: هوداس دولافوس، منشورات المدرسة الباريزية لتدريس اللسن الشرقية، باريس، 1981.
- السوسي محمد المختار ، المعسول، (20 جزءا)، مطبعة فضالة، المحمدية، 1950/1380، الجزء السادس.
- الشنقيطي أحمد بن الأمين، الوسيط في تراجم أدياء شنقيط، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي بالقاهرة ومكتبة منير موريتانيا، مطبعة المدني، مصر، 1999/1409.
- كاروباروخا، دراسات صحراوية، ترجمة: أحمد صابر، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، دار ابي رفرق للطباعة والنشر، الرباط، 2015.

الوزان محمد حسن، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، الطبعة الأولى، الشركة المغربية للناشرين المتحدنين، المغرب، 1982، ج1.

- صحيح البخاري، باب الأرض لمن أحيها، كتاب المزارعة، ص1022
- شرح منح الجليل على مختصر العلامة خليل، تحقيق: الشيخ محمد عlish، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، 1404/1984، الجزء الثامن.

لائحة المراجع والمقالات:

بوبريك رحال، المدينة في مجتمع البداوة: التاريخ الاجتماعي لولادة خلال القرنين 18-19 مع تقديم ونشر تاريخ ولادة، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس - السويسي، الرباط، 2002.

بن محمد محمود أزيد بيه، الزوايا في بلاد شنقيط في مواجهة الاستعمار الفرنسي: فصول في التاريخ السياسي الموريتاني الحديث، تقديم: محمد المختار ولد باه، الطبعة الثانية، المطبعة الوطنية، نواكشوط، 2003.

دحمان محمد، الساقية الحمراء إبان تأسيس زاوية السمارة: مقارنة سوسيو-تاريخية، السمارة: الحاضرة الروحية والجهادية للصحراء المغربية، الطبعة الثانية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2002.

الجنكي الشيخ عبد العزيز، ثمرات الجنان في شعراء بني جاك، الطبعة الأولى، دار المحبة دمشق ودار أية بيروت، 2005/2004.

- العلوي عبد العزيز، تأثيرات "بلاد المغرب" على حضارة السودان الغربي في العصر الوسيط: الدين والفكر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 1998-1999.

ولد عبد الله داوود وآخرون، الثقافة والفكر ببلاد شنقيط: الأطر العامة وسياق الإنتاج، تاريخ موريتانيا فصول ومعالجات، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، مختبر الدراسات والبحوث التاريخية، معهد البحوث والدراسات حول العالم العربي الإسلامي، نواكشوط، 1999.

النحوي خليل، "بلاد شنقيط... المنارة والرباط"، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987.

المصادر والمراجع بالفرنسية:

- 1-Boubrik Rahal, la ville dans la société bédouine histoire sociale de la ville de l'institut Des études walata avec la publication de chronique de walata, africaines ,université Mohammed 5 souissi, Rabat,2002
- 2-Daure-Serfaty Christine, la Mauritanie, éditions L' harmattan, Paris, 1993.
Marty Paul , Les tribus de la Haute Mauritanie » Leroux, Paris, 1915
- 3- Abdel wedoudould cheikh, " Nomadisme, Islam et pouvoir politique dans la société maure précoloniale (Xème– XIXème siècle) Essai sur quelques aspects du tribalisme", Paris V, Doctorat d'Etat, en Sociologie, 1985.



